قوله تعالى : (وقد دخلوا بالكفر) أي : دخلوا كافرين ، وخرجوا كافرين ، فالكفر معهم في حالتيهم ، (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر والنفاق .

﴿ وَتَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وترى كثيراً منهم) يعني : اليهود (يسارعون) ، أي : يبادرون (في الإثم) وفيه قولان . أحدهما : أنه المعاصي ، قاله ابن عباس . والثاني : الكفر ، قاله السدي . فأما العدوان فهو الظلم .

وفي « السحت » ثلاثة أقوال .

أحدها : الرّشوة في الحكم . والثاني : الرشوة في الدين . والثالث : الربا .

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (لولا ينهاهم الرّبانيون والأحبار) « لولا » بمعنى : « هلاّ » و « الرّبانيون » مذكورون في (آل عمران) ، و « الأحبار » قد تقدم ذكرهم في هذه السورة . وهذه الآية من أشد الآيات على تاركي الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لأن الله تعالى جمع بين فاعل المنكر وتارك الإنكار في الذم . قال ابن عباس : ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً من هذه الآية .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ

أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (وقالت اليهود يدُ الله مغلولة) قال أبو صالح عن ابن عباس : نزلت في فنحاص اليهودي وأصحابه ، قالوا : يد الله مغلولة . وقال مقاتل : فنحاص وابن صلوبا [1] ، وعازر بن أبي عازر . وفي سبب قولهم هذا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الله تعالى كان قد بسط لهم الرزق ، فلما عصوا الله تعالى في أمر محمد ﷺ وكفروا به كفَّ عنهم بعض ما كان بسط لهم ، فقالوا : يد الله مغلولة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة .

والثاني : أن الله تعالى استقرض منهم كما استقرض من هذه الأمة ، فقالوا : إن الله بخيل ، ويده مغلولة فهو يستقرضنا ، قاله قتادة .

والثالث : أن النصارى لما أعانوا بختنصر المجوسي على تخريب بيت المقدس ، قالت اليهود : لو كان الله صحيحاً ، لمنعنا منه ، فيده مغلولة ، ذكره قتادة أيضاً .

والمغلولة : الممسَكة المنقبضة . وعن ماذا عَنوا أنها ممسكة ، فيه قولان .

أحدهما : عن العطاء ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج .

والثاني : ممسكة عن عذابنا ، فلا يعذبنا إلا تحلّة القَسَم بقدر عبادتنا العجل ، قاله الحسن . وفي قوله : (غلت أيديهم) ثلاثة أقوال .

أحدها : غلت في جهنم ، قاله الحسن . والثاني : أُمسكت عن الخير ، قاله مقاتل . والثالث : جُعِلوا بُخلاء ، فهم أبخل قوم ، قاله الزجاج . قال ابن الأنباري : وهذا خبر أخبر الله تعالى به الخلق أن هذا قد نزل بهم ، وموضعه نصب على معنى الحال . تقديره : قالت اليهود هذا في حال حكم الله بغل أيديهم ، ولعنته

(١) في « البحر المحيط » ٣/٥٢٢ : صوريا .

إياهم ، ويجوز أن يكون المعنى : فغلت أيديهم ، ويجوز أن يكون دعاء ، معناه : تعليم الله لنا كيف ندعو عليهم ، كقوله : (تبّت يدا أبي لهب) [اللهب : ١] وقوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) [الفتح : ٢٧].

وفي قوله : (ولعنوا بما قالوا) ثلاثة أقوال .

أحدها : أُبعدوا من رحمة الله . والثاني : عذبوا في الدنيا بالجزية ، وفي الآخرة بالنار . والثالث : مُسخوا قردة وخنازير . وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « من لعن شيئاً لم يكن للعنه أهلاً رجعت اللعنة على اليهود بلعنة الله إياهم » . قال الزجاج : وقد ذهب قومٌ إلى أن معنى « يد الله » : نعمته ، وهذا خطأ ينقضه (بل يداه مبسوطتان) فيكون المعنى على قولهم : نعمتاه ، ونعم الله أكثر من أن تحصى . والمراد بقوله : بل (يداه مبسوطتان) : أنه جواد ينفق كيف يشاء[1] وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنباري . قال ابن عباس : إن شاء وسّع في الرزق ، وإن شاء قتّر .

قوله تعالى : (وليزيدن كثيراً منهم ما أُنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً) قال الزجاج : كلما أُنزل عليك شيء كفروا به ، فيزيد كفرهم . و « الطغيان » هاهنا : الغلو في الكفر . وقال مقاتل : وليزيدن بني النضير ما أُنزل إليك من ربك من أمر الرجم والدّماء طغياناً وكفراً .

---

(١) روى البخاري ٨/٢٦٥ ، ١٣/٣٤٧ ، ومسلم ٢/٦٩١ عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ : « إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فانه لم يغض ما في يمينه . قال : وعرشه على الماء وفي يده الأخرى القبض يرفع ويخفض . وقال : يقول الله تعالى : أنفق أُنفق عليك » . وقوله : سحاء ، بفتح السين وتشديد الحاء ، أي : دائم الصب والهطل بالعطاء . وقوله : لا يغيضها ، أي : لا ينقصها . والليل والنهار : منصوبان على الظرف .

قوله تعالى : (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء) فيمن عني بهذا قولان .

أحدهما : اليهود والنصارى ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل . فان قيل : فأين ذكر النصارى ؟ فالجواب : أنه قد تقدم في قوله : (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) . والثاني : أنهم اليهود ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) ذكر إيقاد النار مَثَلٌ ضُربَ لاجتهادهم في المحاربة ، وقيل : إن الأصل في استعارة اسم النار للحرب أن القبيلة من العرب كانت إذا أرادت حرب أخرى أوقدت النار على رؤوس الجبال ، والمواضع المرتفعة ، ليعلم استعدادهم للحرب ، فيتأهب من يريد إغاثتهم . وقيل : كانوا إذا تحالفوا على الجدِّ في حربهم ، أوقدوا ناراً ، وتحالفوا .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : كلما جمعوا لحرب النبي ﷺ فرّقهم الله .

والثاني : كلما مكروا مكراً رده الله .

قوله تعالى : (ويسعون في الأرض فساداً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : بالمعاصي ، قاله ابن عباس ، ومقاتل . والثاني : بمحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم ، ودفع الإسلام ، قاله الزجاج . والثالث : بالكفر . والرابع : بالظلم ، ذكرهما الماوردي .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

قوله تعالى : (ولو أن أهل الكتاب) يعني : اليهود والنصارى (آمنوا) بالله وبرسله (واتقوا) الشرك (لكفرنا عنهم سيئاتهم) التي سلفت .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) قال ابن عباس : عملوا بما فيهما . وفيما أُنزل إليهم من ربهم قولان . أحدهما : كتب أنبياء بني إسرائيل . والثاني : القرآن ، لأنهم لما خوطبوا به ، كان نازلاً إليهم .

قوله تعالى : (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فيه قولان .

أحدهما : لأكلوا بقطر السماء ، ونبات الأرض ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أن المعنى : لوسّع عليهم ، كما يقال : فلان في خير من قرنه إلى قدمه ، ذكره الفراء ، والزجاج . وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق كما قال : (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [الأعراف : ٩٦] وقال : (ويرزقه من حيث لا يحتسب) . [الطلاق : ٣]

قوله تعالى : (منهم أمةٌ مقتصدة) يعني : من أهل الكتاب ، وهم الذين أسلموا منهم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . وقال القرظي : هم الذين قالوا : المسيح عبد الله ورسوله . و « الاقتصاد » الاعتدال في القول والعمل من غير غلوّ ولا تقصير .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك) ذكر المفسرون أن هذه

الآية نزلت على أسباب ، روى الحسن أن النبي ﷺ قال : لما « بعثني الله برسالته ، ضقت بها ذرعاً ، وعرفت أن من الناس من يكذّبني » ، وكان رسول الله ﷺ ، يهابُ قريشاً واليهود والنصارى ، فأنزل الله هذه الآية[1] . وقال مجاهد : لما نزلت (يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك) قال : « يارب كيف أصنع ؟ إنما أناوحدي يجتمع عليَّ الناس » ، فأنزل الله (وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال مقاتل : لما دعا اليهود ، وأكثر عليهم ، جعلوا يستهزؤون به ، فسكت عنهم ، فحُرّض بهذه الآية . وقال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يُحرَسُ فيرسل معه أبو طالب كلَّ يوم رجالاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية ، فقال : « ياعمّاه إن الله قد عصمني من الجن والإنس »[2] . وقال أبو هريرة : نزل رسول ﷺ ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها ، فجاء رجلٌ فأخذه ، فقال : يا محمد من يمنعني منك ؟ فقال : « الله » ، فنزل قوله : (والله يعصمك من الناس)[3] . قالت عائشة : سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة ، فقلت : ما شأنك ؟ قال : ألا رجلٌ صالح يحرسني الليلة ، فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السّلاح ، فقال : « من هذا » ؟ فقال : سعد وحذيفة جئنا نحرسك ، فنام رسول الله ﷺ حتى

---

(١) نسبه السيوطي في « الدر المنثور » ٣٩٨/٢ لأبي الشيخ .

(٢) نقل ابن كثير في « التفسير » ٧٨/٢ عن ابن مردويه خبراً بمعناه عن جابر بن عبد الله ، ثم قال : وهذا حديث غريب وفيه نكارة ، فان هذه الآية مدنية ، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية ، ثم أخرج عن ابن مردويه الحديث الذي ذكره المصنف ، وقال : رواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني عن أبي كريب به ، وهذا أيضاً حديث غريب ، والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ماتزل بها والله أعلم .

(٣) الخبر في « موارد الظمآن في زوائد ابن حبان » : ٤٣ ، ونقله ابن كثير عن ابن مردويه وابن حبان . وفي سنده مؤمل بن اسماعيل العدوي وهو صدوق سيء الحفظ ، وانظر ترجمته في « التهذيب » ٣٨٠/١٠ .

سمعت غطيطه ، فنزلت (والله يعصمك من الناس) فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة أدم وقال : « انصرفوا أيها الناس ، فقد عصمني الله تعالى »[1] . قال الزجاج : قوله : (بلّغ ما أُنزل إليك) معناه : بلغ جميع ما أُنزل إليك ، ولا تراقبن أحداً ، ولا تتركنّ شيئاً منه مخافة أن ينالك مكروه ، فان تركت منه شيئاً ، فما بلّغت[2] . قال ابن قتيبة : يدل على هذا المحذوف قوله : (والله يعصمك) وقال ابن عباس : إن كتمت آية فما بلّغت رسالتي . وقال غيره : المعنى : بلّغ جميع ما أُنزل إليك جهراً ، فان أخفيت شيئاً منه لخوف أذىً يلحقك ، فكأنك ما بلّغت شيئاً . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « رسالته » على التوحيد . وقرأ نافع « رسالاته » على الجمع .

قوله تعالى : (والله يعصمك من الناس) قال ابن قتيبة : أي : يمنعك منهم . وعصمة الله : منعه للعبد من المعاصي ، ويقال : طعام لا يعصم ، أي : لا يمنع من الجوع . فان قيل : فأين ضمان العصمة وقد شُجّ جبينه ، وكسرت رَباعيته ، وبولغ في أذاه ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه عصمه من القتل والأسر وتلفِ الجملة ، فأمّا عوارض الأذى ، فلا تمنع عصمة الجملة . والثاني : أن هذه الآية نزلت بعدما جرى عليه ذلك ، لأن « المائدة » من أواخر ما نزل .

---

(١) الترمذي ٤/٩٦ ، والطبري ١٠/٤٦٩ ، والحاكم ٢/٣١٣ ، وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . وقد حسن الحافظ في « الفتح » إسناده .

(٢) روى البخاري ٨/٢٠٦ ، ومسلم ١/١٥٩ عن عائشة رضي الله عنها قالت : من حدثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أنزل عليه ، فقد كذب ، والله يقول : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) .

قوله تعالى : (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) فيه قولان .

أحدهما : لا يهديهم إلى الجنة . والثاني : لا يعينهم على بلوغ غرضهم .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء) سبب نزولها : أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألست تؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها حق ؟ قال : بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها ، فأنا بريء من إحداثكم . فقالوا : نحن على الهدى ، ونأخذ بما في أيدينا ، ولا نؤمن بك ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . فأما أهل الكتاب ، فالمراد بهم اليهود والنصارى . وقوله : (لستم على شيء) أي : لستم على شيء من الدين الحق حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وإقامتها : العمل بما فيها ، ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ . وفي الذي أُنزل إليهم من ربهم قولان قد سبقا ، وكذلك باقي الآية .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) قد ذكرنا تفسيرها في (البقرة) . وكذلك اختلفوا في إحكامها ونسخها كما بينا هناك . فأما رفع « الصابئين » فذكر الزجاج عن البصريين ، منهم الخليل ، وسيبويه أن قوله :

« والصابئون » محمول على التأخير ، ومرفوع بالابتداء . والمعنى : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والصابئون والنصارى كذلك أيضاً ، وأنشدوا :

وإلّا فاعلموا أنّا وأنتم بُغاةٌ ما بقينا في شقاق [1]

المعنى : فاعلموا أنا بُغاة ما بقينا في شقاق ، وأنتم أيضاً كذلك .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾

قوله تعالى : (لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل) قال مقاتل : أخذ ميثاقهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها . قال ابن عباس : كان فيمن كُذِّبُوا ، محمد ، وعيسى ، وفيمن قُتِلوا ، زكريا ، ويحيى . قال الزجاج : فأما التكذيب ، فاليهود ، والنصارى يشتركون فيه . وأما القتل فيختص اليهود .

﴿ وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وحسبوا أن لا تكون فتنة) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ،

---

(١) البيت لبشر بن أبي خازم من قصيدة يهجو بها أوس بن حارثة . وهو في ديوانه : ١٦٥ وسيبويه ١/٢٩٠ ، و « شواهد العيني » ٢/٢٧١ وقبله :

إذا جزت نواصي آل بدر فأدوها وأسرى في الوثاق

وقصة البيتين أن قوماً من آل بدر الفزاريين جاؤوا بني لأم من طيء ، فأسرتهم طيء ، وجزوا نواصيهم ، وقالوا : منا عليكم ولم نقتلكم ، فغضب بنو فزارة ، فانتصر لهم بشر للحلف الذي كان بينهم وبين بني أسد قومه . والمعنى : أدوا الينا نواصي بني بدر ، واحملوا معها أسراهم ، وإلا فانا وأنتم متعادون أبداً .